

تقييد

للاستاذ أنور المعداوي

مقدمة « الملك أوديب » لتوفيق الحكيم :

بعد غيبة طويلة يعود توفيق الحكيم إلى قرائه ... ولست أرى من وراء هذه الكلمة إلى وضع كتابه الجديد فوق مشرحة النقد ، فإن موعدي معه في الأسبوع المقبل أو الأسبوع الذي يليه ، وإنما أرى إلى تناول هذه المقدمة بالنقد والتحليل ، لأنها تستحق من الناقد أن ينحصرها بكثير من التأمل والعناية .

كتب توفيق الحكيم هذه المقدمة ليصل من ورائها إلى هدفين : أولهما أن يقدم للناظر عرضاً موجزاً لنشأة المسرحية في الأدب العربي المعاصر ونشأتها في الأدب اليوناني القديم ... وليقدم له أيضاً بعض الملل والأسباب التي حالت في رأيه بين الأدبيين وبين التزاوج في مجال الأدب التمثيلي ، على الرغم من هذا التزاوج الذي حدث بين الفلسفة اليونانية والفكر العربي . هذا هو الهدف الأول ، أما الهدف الثاني فيدور حول هذا الملل الفني الذي أقامه على دعائم الأسطورة لليونانية عند سوفوكليس ؛ أسطورة « أوديب الملك » .

ولقد تساءل الأستاذ الحكيم وهو في رحاب الهدف الأول الذي أشرت إليه عن سر إجماع العرب عن ترجمة مآسي شعراء الإغريق مع أنهم تعلموا كتاب الشعر لأرسطو وفيه تعريف بالتراجيديات والكوميديات وما إليها من فنون الشعر التمثيلي ، ومع أنهم تعلموا إلى جانب هذا الكتاب بعض الآثار الأخرى في الفكر اليوناني ... هل يكون الإسلام هو الذي حال دون اقتباس هذا الفن الوثني ؟

إن الإسلام في رأي الأستاذ الحكيم لم يحل بين الناقلين وبين ترجمة كثير مما أنتج الوثنيون . كما أن الإسلام لم ينكر مخربات أبي نواس ، ولا نعت التمثيل في قصور الخلفاء ، ولا برامة التصوير في « للياتور » الفارسي ... أمي الصموية إذن في فهم هذا

الأول من القصص الشمري وكله يدور حول أصاطير ؟ كلا ، فإن كتاب « الجمهورية » لأفلاطون قد حفل بأفكار يدق فهمها على العقلية العربية ، ومع ذلك فقد نقل إلى العربية وتناوله الفارابي بالبحث والمراجعة !

بعد هذين الفرضين يرد الأستاذ الحكيم علة الإجماع إلى أن التراجيديات الإغريقية في ذلك الحين لم تكن أدباً مهياً للقراءة والاطلاع ، ولكنها كانت أدباً معداً للتمثيل والمشاهدة ... ومن هنا لم يجد المترجم العربي حين اطلع عليها كبير نفع ولا غناء ، لأن الشروح والملاحظات التي كان يمكن أن تنير له الطريق ، لا تتضح إلا أثناء التمثيل أمام جمهور من النظارة ، وهذا أمر لم يقدر العرب أن يروه من قريب أو من بعيد !

وأعقب على هذا كله فأقول : إن المسألة لا تحتاج في رأيي إلى كل هذه الفروض ... فلو أن الأستاذ الحكيم قد حاول أن يختبر مدنى العقلية العربية في ذلك الحين ، لوجد أن هذا المدن كان يستجيب لحارة التفكير الطلي أكثر مما كان يستجيب لحارة التفكير الفني ؛ ومن طبيعة مدن هذا شأن أن يسيغ كتاباً لأرسطو وأفلاطون ، أكثر مما يسيغ تمثيلية ليوريبند أو سوفوكليس ! ...

إن العقليات معادن ، والعقلية العربية في عصورها الأولى كانت عقلية جدل ومناقشة ، يستهويها ويشير اهتمامها ما يحرك في طبيعتها نزعة الجدل والمناقشة ... لماذا ؟ لأنها كانت تسمى وراء الحقائق ، تحاول باهدة أن تكشف عنها على ضوء من نور العقل وحده دون سواء ... ومن هنا كان هذا الإغراق في العقليات ، الإغراق الذي كاد يستأثر بناية العرب ويستغرق كل وقتهم وجهدهم وطاقتهم الفكرية . أما التمثيلية التي تقوم على الأسطورة ، فكان من الطبيعي ألا تستهوى عقلية جبلت على السمع وراء الحقيقة ؛ لأنها عقلية تريد أن تناقش وتبحث وتجادل وتقرع الحجة بالحجة وتقيم الدليل على أنقاض الليل ، فإن هذا كله من مجال يقوم العمل الفني فيه على مراعاة القزمات النفسية والمواطف الإنسانية ، وأعلى به مجال الأدب التمثيلي عند اليونان ؟! هذا التفسير يمكن أن نجيب به مرة أخرى على الأستاذ الحكيم حين يتساءل في موضع آخر : لماذا لم يوجد التمثيل في

الحضارة العربية ولم يعرف ؟

لقد أرجع الأستاذ هذا الأمر إلى طبيعة عدم الاستقرار في الوطن العربي إلا أن مصوره الأولى ... إن التمثيل في حاجة إلى مسرح ، والمسرح في حاجة إلى استقرار ، والاستقرار أمر لم تهتبه البيئة للعربي الذي كان يسى وراء قطرة ماء تلوح له هنا أو هناك ! وإذا كان العرب قد تهتبا لهم في المصيرين الأموي والعباسي وما بعدهما أن يحيوا حياة مستقرة ، فإن ابتعادهم عن التمثيل كان مرجعه إلى أنهم لا يمدلون بشعرهم العربي شعراً آخر ، حتى ولا هذا الشعر اليوناني الذي أقيم على أركانه بناء التمثيلية اليونانية ! وفي موضع ثالث ينتقل الأستاذ المحكم إلى مقدمة « كروموبل » أفكتور هوجو ، وهي المقدمة التي يقسم فيها تاريخ البشرية إلى عهود ثلاثة : العهد الفطري وهو عهد الشر الثنائي ، والعهد القديم وهو عهد الملحمة ، والعهد الحديث وهو عهد التمثيلية ... هذه النظرية التي ينادي هوجو بإمكان تطبيقها على أدب كل أمة من الأمم ، يرى الأستاذ المحكم أنها تصلح للتطبيق على الأدب العربي « إذا ما تناضينا عن (القوالب) واقتصرنا في بحثنا على (الأغراض) ؛ ففي العصر العباسي وحده نجد البحتري قبل المتنبي ، والمتنبي قبل أبي العلاء ، ولونغرس هؤلاء الشعراء في أرض اليونان ، فكان البحتري (صناجة العرب) هو (بندار) ، وكان المتنبي الذي دوى في آذاننا على مدى الأجيال بسليل السيوف هو (هوميرو) ، وكان أبو العلاء الذي صور لنا التفكير في الإنسان ومصيره واللا الأعلى هو (إشيل) ... فالتطور إذن من حيث الموضوع قد تم » .

يبدو لي أن الأستاذ المحكم قد نسي أن هوجو يدعونا إلى تطبيق نظريته على أدب كل أمة من الأمم على مدار تاريخها كله ، لا على مدار عصر بعينه كما فعل حين قصر التطبيق على العصر العباسي ... إن هوجو ينسب الشعر الثنائي إلى العهد الفطري ، فهل كان البحتري من العهد الفطري ؟ وينسب الملحمة إلى العهد القديم ، فهل كان المتنبي من العهد القديم ؟ وينسب التمثيلية إلى العهد الحديث ، فهل كان أبو العلاء من العهد الحديث ؟ ! ...

أما مسألة (القوالب والأغراض) ، فأظن أنه لم يبق لها ما يبررها ما دام التطبيق قد بعد عما يهدف إليه هوجو من وراء نظريته ...

ثم يقول الأستاذ المحكم في موضع رابع إن فلاسفة العرب قد سبوا آثار أفلاطون وأرسطو بلون تفكيرنا وطبعوها بطابع عقائدا ... في رأي أن شيئاً من هذا لم يحدث ، إن كل ما نقله فلاسفة العرب هو أنهم نظروا في الفلسفة اليونانية فنقلوها بمض ما فيها من آراء ومذاهب نقلوا يحمل بالخطأ والتشويه ؛ ذلك لأنهم حاولوا أن يوفقوا بين تعاليم الفلسفة اليونانية وبين تعاليم الدين الإسلامي ، فكانت محاولة انتهت بأصحابها إلى الإخفاق ، أما الإخفاق فرجعه إلى بعد الشقة بين العقلية اليونانية والعقلية العربية من جهة ، وبين منهج الفلسفة اليونانية ومنهج الديانة الإسلامية من جهة أخرى ، ومن هنا كانت الفلسفة الإسلامية خليطاً مجيئاً من أفكار مضطربة لا تقترب كثيراً من الدين ولا من الفلسفة ، ونظرة متأنية إليها فيها الدليل كل الدليل !

أما الجزء الأخير من مقدمة « أوديب الملك » ، وهو الذي عرض فيه الأستاذ المحكم أن تناولوا أسطورة سوفوكليس في آثارهم الفنية ، من أمثال « بينس » و « هوفانستال » و « سان جورج دي بوهليه » و « جان كوكثو » و « أندريه جيد » ، هذا الجزء الأخير يحمل بكثير من الملحمة المشرقة ، وكما أود أن يرجع إليه القاري لأنه يد في حقيقته مفتاحاً لتلك الأعمال الفنية التي أعقت « أوديب » سوفوكلي ، ومنها هذا العمل الناضج الذي قام به توفيق الحكيم .

« قطرات ندى » لراعي الراعي :

صكتاب نفيس عثرت عليه في سوق الوراقين ، وما أكثر ما يجد المرء في سوق الوراقين من نفائس ... ولقد عثرت عليه عارياً لا ينشع بخلاف يمكن أن يهديني إلى اسم صاحبه ! وحين خلوت إليه أقلب صفحاته بين يدي رأيتني أمام كتاب ممتاز لأديب ممتاز ، ولكن من هو هذا الأديب الذي هزني وأين مكانه ؟ إنه يمرض في الصفحات الأولى من كتابه لبعض الأماكن في لبنان وليس رجال الصحافة والأدب في لبنان ، ترى أيبكون صاحب « قطرات ندى » هو جبران أو الريحاني أو نسيب ؟ لقد وقع في ظني أن يكون واحداً من هؤلاء الثلاثة ، لأنه في رأي لا يفتقر عنهم في سمة أفقه وومضات فكره ووثبات خياله هذا ما وقع في ظني ، ولكنني حين رجعت إلى أحد أصدقائي

من الأدباء اللبنانيين أسأله عن الكتاب وصاحبه ، تلقيت منه رسالة يلغني فيها أن صاحب « قطرات ندى » هو راجي الراعي . راجي الراعي ؟ كيف يكون في لبنان مثل هذا الأدب الممتاز ثم لا أعرفه ولا يعرفه غيري ولم نسمع به من قبل ؟ وإذا كان قد انقطع عن الكتابة فأى شأن من شؤون الحياة قد شغله عن الأدب وحال بينه وبين ميدانه ؟ . ومرة أخرى تلقيت رسالة من الأدب اللبناني الصديق ، تحمل إلى « الجواب عما أثرت من أسئلة حول صاحب « قطرات ندى » . إن راجي الراعي كما يقول الصديق في رسالته أديب كبير من طراز ميخائيل نعيمة ، ولكنه انصرف عن الأدب منذ أمد بعيد حيث شغل بالتفرغ لهنة المحاماة ومنصب القضاء .

لا أدري كيف يستطيع بعض الأدباء الناضجين من أمثال راجي الراعي أن ينصرفوا عن ميدانهم الأصيل وهو ميدان السياسة ... إن « إدوار حريو » سياسي فرنسي له في رحاب السياسة شأن كبير ومكان ممتاز ، ولكنه في رحاب الأدب أعظم شأنًا وأرفع مكانًا عند الذين يقيمون الميزان الحقيقية هذا السياسي الأديب ، ومع ذلك فلم تستطع السياسة أن تشغله عن ميدانه الذي أخرج فيه كتابين من أنفاس وأعمق ما ظهر في الأدب الفرنسي الماصر ، وأعنى بهما كتابيه عن « يتهوفن » و « مدام ريكايمي » .

هذه تحية أبعث بها إلى راجي الراعي على صفحات الرسالة .. ولعله يلبي دعاء الأدب يوماً فيعود إلى ميدانه ، لأن مجاله هنا كما أعتقد وليس هناك لوق المدد المنبل أقدم بعض كتاباته وتحقيقاته رسالة لطفي السيد إلى الشباب :

لطف السيد أستاذ الأساتذة في هذا الجيل ، وهو واحد من هذه الفئة التي تزن القول حين تطلعه ، وتزن الرأي حين تنادي به وما أجدر الشباب حين يتحدث هذا الرجل أن ينصتوا إليه ، وأن يتدبروا كتاباته ، وأن يتخذوا من نصائحه وخبرته وتجاربهم ما يشعدهمهم ، ويقوى عزائمهم ، ويسدد خطاهم ، في هذا الطريق الطويل الذي تتجاذبهم فيه هواطف الشباب ونزواته . يقول لطف السيد في رسالته التي حملها « الأهرام » منذ أيام إلى ناشئة البلاد من طلاب الجامعة : إن التسليم الجامعي

أساسه حرية الفكر ، والتربية الجامعية قوامها حرية السل ، ورسالة الجامعة هي إعداد الطلاب لخدمة وطنهم في جميع نواحي الخدمة العامة من سياسية واجتماعية وفنية . ثم يقول لطف السيد بعد أن تناول هذه الأهداف بالشرح والتفصيل « هذه هي رسالة الجامعة فيما أعتقد أنه المثل الأعلى للجامعات . فإن يكن انصراف عن الجادة المثل وميل عن سواء السبيل ، فراجع هذه الحال في تقديري إلى انصاف الأحزاب السياسية بالطلبة وصرفهم عن واجهم العلمي إلى الاشتغال بالسياسة العملية . أنا لا أكره أن يشتغل الشبان بالسياسة على اعتبار أنها موضوع نظري يدرس وتناقش مذاهبه المختلفة القديم منها والحديث . أما السياسة العملية فقد حنوت الشبان دائماً من الإحلاس لقيادة القائمين بها من الأحزاب والهيئات إذ كفت أروى ولا أفنا أقول : إن السياسة إذا تدخلت في التعليم أفسدته ، ولا علم على الوجه الصحيح إلا إذا تفرغ الطالب له وتجرد عن كل غرض سواه » .

هذا هو حديث لطف السيد إلى الشباب ، وإنه لحديث يفضي به الرجل في إبانته ... إننا ننظر اليوم فنجد بعض طلاب العلم وقد تحولوا إلى طلاب دماء ، وبعض عشاق المعرفة وقد انقلبوا إلى عشاق هدم وتدمير ، وبعض الإشراف الذي كان يشع من نفوسهم وقد انتهى إلى إحراق . ترى كيف تحول وهج العلم في أذهانهم إلى وهج رساوس في أيديهم ، حتى لقد أصبحنا نشفق على مستقبل الشباب من أزميتين : أزمة الضمير العلمي وأزمة الضمير الإنساني ! القول ما قال لطف السيد ، وهو أن السياسة إذا تدخلت في التعليم أفسدته ، ولا علم على الوجه الصحيح إلا إذا تفرغ الطالب له وتجرد عن كل غرض سواه .

حول تحية الأديب للرسالة :

وعدت القراء في عدد الأسبوع الماضي أن أتناول بالتفصيل خبر اختفاء « الرسالة » من الجناح المصري في معرض الكتاب الذي أقامته الحكومة اللبنانية بمدينة اليونسكو ، وهو الخبر الذي نشرته زميلتنا « الأديب » اللبنانية وعلقت عليه بما شاء لها الأدب الجم والتقدير الكريم ... ومرة أخرى اعتذر عن ضيق النطاق صراحة التعتيب إلى المدد القادم إن شاء الله .

أنور المعداوي